

تهافت دبلوماسية مدريد أمام حسابات الرباط

محمد ماموني العلوي
صحافي مغربي



رَفُضَ المغرب ممارسة مدريد ازدواجية الخطاب والمواقف، هو موقف سيادي يدخل في سياق المتغيرات الاستراتيجية التي تعرفها المملكة على جميع الأصعدة، وهو ما عبّر عنه وزير الخارجية ناصر بوريطة بأن "على مدريد أن تعي أن مغرب اليوم ليس هو مغرب الأمس، وعلى بعض الأوساط في إسبانيا أن تقوم بتحديث نظرتها إلى المغرب". في تقديري، الموقف ليس مرتبطا بحماسة عاطفية قد تؤثر سلبا على أداء السياسة الخارجية للرباط كما يعتقد البعض، بل هو من صميم الدبلوماسية الهجومية التي ارتضاها المغرب للدفاع عن مصالحه وتحسين مكتسباته في واقع يعترف بالقوة والمصالح، وأمام واقع أن مدريد لا تعرض حلا للأزمة المستشرية منذ وقت طويل، وزاد من حدتها التعامل غير المهني مع ملف الصحراء في كل تفاصيله، وعليه يعمل المغرب على استغلال كل الأوراق التي بحوزته لحماية مصالحه ضد خصومه سواء على الصعيد الأوروبي أو الأفريقي.

الحتم التي أصابت وسائل الإعلام الإسبانية بعد تدفق المهاجرين نحو سبتة المحتلة، أخفت الدقة والموضوعية والحياد وراء غاية من الاختلافات في لعبة سياسية هدفها الترويج لإباطيل ليس آخرها كيف تعامل المغرب مع ملف الهجرة، ما دفع ناصر بوريطة لاعتبار الهجوم الإعلامي الإسباني تجاه المغرب على أساس أخبار زائفة لا يمكن أن يخفي السبب الحقيقي للأزمة، وهو استقبال مدريد لزعم ميليشيات البوليساريو الانفصالية بهوية مزورة.

الملاحظ فيما يجري حاليا هو عدم الرغبة في فهم دوافع المغرب ومنطقه في تدبير أمنه القومي وسياساته الخارجية، فضلا عن مخاوفهم من أي تغيير عن مظاهر سيادة المغرب، سواء في جغرافيته الممتدة من الصحراء جنوبا إلى سبتة ومليلية المحتلتين شمالا ومن الحدود الشرقية إلى ما وراء المياه الإقليمية في المحيط الأطلسي، وما ينتج عن ذلك من استغلال لثروات البلد فيما ينفع مستقبل المواطن المغربي وحاضره، فالتحليل المبني على أجدبيات العقيدة الاستعمارية يرسم بسهولة المغرب كخصم باكثر الألوان كتابة.

أصبح أعضاء الحكومة الإسبانية في هذه الأيام، من رئيسها وحتى وزراءها الرئيسيين، فريسة سهلة للأيديولوجيا نتجة الافتقار إلى المعرفة الأساسية بالظرف المغربي في العديد من الملفات ومنها الهجرة والتجارة والصيد البحري والحدود الوهمية والواقعية. وتكونوا فاضح على ذلك ما قالته مارغريتا روليس حول تدفق المهاجرين من المغرب الاثنين الماضي نحو سبتة المحتلة، واصفة ذلك بـ"اعتداء على الحدود الإسبانية وكذلك على حدود الاتحاد الأوروبي".

نتيجة لذلك، تم استدعاء السفارة المغربية في إسبانيا للتساور. وهو عرف دبلوماسي ينذر بأن الأمور ليست على ما يرام، فقد تم استنزاف العقلانية والاحترام المتبادل المفترض في حوار السياسة الخارجية، بين المغرب وإسبانيا، بتبجح المسؤولين الإسبان وتغاضبهم عن التاريخ والجغرافيا والوثائق التي تفصح تشويهم الصورة الحقيقية باحتلالهم للمدينتين وهذا الأمر لا يسقط بالتقادم.

في ظل الظروف الحالية للأزمة المستمرة ومتعددة النواحي بين المغرب وإسبانيا نحتاج إلى معرفة نوعية لبعضنا البعض أكثر من أي وقت مضى، وبشكل أكبر لا بد للطرف الآخر أن يتخلى عن نظراته الغارقة في الاستعلائية والعنصرية تجاه المملكة المغربية، فالتعامل مع تعقيد الموقف وعموضه وما يجري حوله يحتاج إلى الدقة والبصيرة والمعرفة الكاملة بالذات والدولة الشريكة. حتى الآن، يبدو من خلال المعطيات المتوفرة أن السياسة الخارجية الإسبانية في السنوات الأخيرة وقعت أسيرة لأحكام مسبقة وقوالب نمطية وجهل بالجار الجنوبي المغربي وافتقار إلى معرفة محبنة بطموحاته وأدوات تحقيقها ما جعل الأخطاء تتراكم والإزمات تتوالى.



الأسئلة الصعبة المسكوت عنها لما بعد الحرب المدمرة على غزة

والبطولة في فرض شروط معينة على العدو أم ستكون النتيجة كالحرب السابقة، أو في أحسن الأحوال الاعتراف بشرعيتها كسلطة في غزة، مع تكريس فصلها عن الضفة؟ باختصار، وبعيدا عن الرغبات والعواطف وحماس اللحظة، فإن تبين مآلات المسألتين المذكورتين هو الذي سيقرر صوابية هذا الشكل أو ذاك في هذه اللحظة التاريخية، من عدم ذلك، ولنأمل أن تكون النتيجة هذه المرة على خلاف المرات السابقة.

وازنة، تحذرت إرادته، أو تمردت عليه (على خلفية الانتخابات)، هكذا، كانت ثمة حاجة لدى حماس إلى عمل كبير، لإضفاء شرعية وشعبية على مسعاها أخذ دفة القيادة، على الأرجح، يصنع معركة "الكرامة" خاصتها، ما يذكر بمعركة الكرامة (1968) التي خاضتها الحركة الوطنية الفلسطينية، علما أن ظروف ما بعد حرب يونيو (1967) كانت تتطلب دورا للكفاح المسلح الذي أطلقته حركة فتح، لتغطية هزيمة الأنظمة العربية، في حين لا تتوفر، اليوم، مثل تلك الظروف لحماس، كي تؤمن لها تلك النقطة.

على ضوء القراءة السابقة، ومع كل التقدير للتضحيات والبطولات، فإن التطورات الحاصلة، وتبعها لخبرات التجربة الوطنية الفلسطينية، التي لها 56 عاما، وبحكم واقع حماس كسلطة، يفترض التفكير بالمسائل الآتية: أولا، هل يجوز لفصيل ما، سواء فتح أو حماس أو أي فصيل آخر، أخذ الشعب إلى خيار سياسي أو كفاحي، مهما كان نوعه، وبمغزل عن مشاركة الشعب بالتقرير بهذا الخيار، أو الاستعداد له، علما أن أغلبية الشعب الفلسطيني اليوم خارج الفصائل، وعلما أن تلك الفصائل أضحت سلطة في الضفة أو غزة كما قدمنا؛ وعلما أن الشعب الذي لا أحد يسأله عن رأيه هو الذي يدفع الثمن الأكبر لأي خيار تأخذه فتح أو حماس؟

ثانيا، هل من المشروع سياسيا وعسكريا وأخلاقيا خوض معركة من نوع جيش مقابل جيش أو صاروخ مقابل صاروخ؟ لا أتحدث هنا عن البون الشاسع في القوة التدميرية، ولا عن البون الشاسع في عدد الضحايا والخسائر، وإنما أتحدث بالتحديد عن جوانب ذلك عسكريا، إذ من المفروض أن المقاومة تتجهج استراتيجيا الضعيف ضد القوي، وأنها تحيد القوة العسكرية الباطشة للعدو ما أمكن، وأنها تجنب شعبها ضربات العدو، وأنها أساسا تريح المعارك بالنقاط وليس بالضربة القاضية، وأن ما يحكم صوابية شكل معين، من عدم ذلك، هو أنه يجب أن يفضي إلى إضعاف مجتمع العدو أو استنزافه، وليس العكس، أي إضعاف الشعب أو مجتمع المقاومة واستنزافه. ومع تأكيد مشروعية كل أشكال الكفاح، إلا أنه لكل شكل كفاحي ظروفه، ومعانيه، أيضا، لتأمين إمكان استمرار هذا الشكل أو ذاك.

ثالثا، لحسم النقاش، من منظور وطني سياسي وأخلاقي واستراتيجي، ففي تقييم ما حصل يفترض التأكيد من مسألتين، أو لاهما، هل التحول نحو العسكرية والحرب الصاروخية سيعزز من النهوض الشعبي الفلسطيني، وسيرسخ انتقال فلسطيني 48 إلى قلب العملية الوطنية الفلسطينية أم أنه سيؤدي إلى كبح ذلك، وقطع هبة الشعب، فانهما، هل ستمكن حماس من تصريف كل تلك التضحيات

التخلص منه بأي شكل، ما يفسر تعاطيا معه بسياسات متعددة، إذ ثمة نظام كولونيالي مع تمييز عنصري في مناطق 48، احتلال في مناطق 67 أي في الضفة والقطاع، واقتلاع وتشريد للاجئين الفلسطينيين، بيد أن هبة القدس قوّضت كل ذلك واختفت الحدود بين الضفة وغزة والقدس ومناطق 48، مع المشاركة غير المباشرة للفلسطينيين في بلدان اللجوء والشتات، أي إن تلك الهبة عززت رؤية الفلسطينيين لذاتهم كشعب واحد، بدلا من نظرة تتعاطى وكان الفلسطينيين بمثابة "شعوب" عديدة، مع أولويات وحاجات مختلفة ومتمايزة.

ثالثا، تلك الهبة وهدت السردية التاريخية للفلسطينيين، في تأكيدها أن قضيتهم نشأت مع مواجهة المشروع الصهيوني، لاسيما مع إقامة إسرائيل، كدولة استعمارية واستيطانية وعنصرية، وتشريد الشعب الفلسطيني من أرضه (1948)، وليس فقط مع احتلال الضفة والقطاع (1967)، وبعبار أن إسرائيل هي المستوطنة الأكبر في فلسطين التاريخية.

بيد أن تلك الحرب، أيضا، غيرت مشهد الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، إذ أتت بعد اندلاع هبة شعبية عارمة، على خلفية محاولة إسرائيل انتهاك حرمة المسجد الأقصى، والتحكم بدخول الفلسطينيين إليه، في سياق نهجها مصادرة المكان والزمان والرواية الفلسطينية، ومحاولة رمزية منها لإخضاع الفلسطينيين لمنطقها بانها هي صاحبة المكان. وقد تراقف ذلك مع محاولات إسرائيل اقتلاع عائلات فلسطينية من مساكنها في حي الشيخ جراح في القدس، ما يذكر بأحداث النكبة (1948)، وذلك في الذكرى 73 للنكبة. هكذا انفتح المشهد الفلسطيني على هبة شعبية عارمة، تنذر بالتحول إلى انتفاضة شعبية ثالثة، إذ أنها وهدت الشعب الفلسطيني في كافة أماكن تواجده، واستنهضت الطاقة الكفاحية المخترنة عنده، بعد طول جمود. وقد نجم عن تلك الهبة تطورات نوعية لافتة، أهمها:

أولا، الانخراط الفاعل للفلسطينيين فيها، ما نقلهم من خارج العملية الوطنية الفلسطينية إلى داخلها، أو من هامشها على قلبها، وهي نقلة على غاية في الأهمية في إدراك الفلسطينيين لذاتهم كشعب، وفي طابع حركتهم الوطنية، مع علما أن تلك الحركة كانت سلمت تاريخيا بالتعاطي معهم كخارج، ومعطى داخلي في المعادلة الإسرائيلية، بدعوى خصوصيتهم، أي لم يجر التعامل معهم بدلالة انتمائهم لشعب فلسطين. ثانيا، إن تلك الهبة قوّضت كل المسلمات أو الأوهام التي حاولت إسرائيل فرضها في صراعها مع الفلسطينيين، فهي في الحقيقة تتعاطى معهم كوحدة واحدة، وكعدو، يفترض

هل ستمكن حماس من تصريف التضحيات في فرض شروط معينة على العدو أم ستكون النتيجة كالحرب السابقة أو بشرعيتها كسلطة في غزة مع تكريس فصلها عن الضفة؟

العرب

أول صحيفة عربية صدرت في لندن
أسسها 1977
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة يعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 - 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk